فرصة الفريق السيسى

يبدو الفريق أول عبد الفتاح السيسى فى صورة الحل السحرى والمنقذ والمخلص فى نظر الغالبية الهائلة من المصريين .

وفى أول حوار صحفى مصرى مع الفريق السيسى ، سئل الرجل عن احتمال ترشحه فى انتخابات الرئاسة ، وكان الجواب مفتوحا لا مغلقا هذه المرة ، ففى مرات سابقة كان الجواب أميل للنفى والامتناع ، وفى هذه المرة كان الجواب على طريقة "الوقت غير مناسب للسؤال" و"الله غالب على أمره"، وهو ما فهم من قبل الكثيرين كموافقة مبدئية ، أو استعداد للتجاوب مع مطالب شعبية تتسع دوائرها ، وتلح فى ترشحه ، وتلك ظاهرة نتوقع تزايد ضغوطها على منحدر الشهور المقبلة إلى يوم انتخابات الرئاسة المصرية .

ولا يخلو الأمر من معارضة نخب بعينها لمبدأ ترشح الفريق السيسى ، خاصة نخب جماعة الإخوان ومن والاها ، أو نخب "الليبرالية الجديدة" المتصلة بدوائر التأثير الأمريكى، وشعار هؤلاء يبدو بسيطا ومغريا ، وإن كان ملغوما ومريبا ، فهم يقولون لك أنهم ضد ترشح السيسى لأنه رجل عسكرى ، وأن الثورة المصرية المعاصرة قامت ضد "حكم العسكر"، وهذه مغالطة تاريخية مفضوحة ، فقد قامت الثورة ضد حكم مبارك ، ثم توالت موجاتها اللاحقة ضد حكم مجلس طنطاوى وعنان ، ثم ضد حكم الإخوان الذى كان نسخة كاريكاتيرية من حكم مبارك ، وصحيح أن مبارك شخص من خلفية عسكرية ، لكن المصريين لم يثوروا ضده لأنه عسكرى ، بل لأن اسمه حسنى مبارك ، والاسم فى ذاته عنوان على مرحلة انحطاط تاريخى طويل ، بدأها الرئيس السادات - وهو عسكرى أيضا - بانقلابه على اختيارات ثورة عبد الناصر عقب

حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، وقد كان عبد الناصر بدوره من خلفية عسكرية، لكنه صار أبرز زعيم شعبى فى تاريخ مصر المعاصرة كلها ، وبعد ثلاث وأربعين سنة على رحيله ، يبدو اسم عبد الناصر الأكثر شعبية فى مصر وعموم الدنيا العربية ، والمعنى ظاهر ، فليست الخلفية المهنية هى التى تصنع الفرق ، بل الدور السياسى ، والاستعداد الشخصى ، وقبول الناس ، وبعد الموجة الأولى من الثورة فى ٢٥ يناير ٢٠١١ ، بدت مقدرة الشعور الشعبى هائلة على فهم وفرز معادن الرجال ، فلم يتمتع المشير طنطاوى ولا الفريق عنان بشعبية تذكر ، وانتهى الرجلان إلى خيمة الظلال الباهتة ، وعلى العكس تماما من صورة الفريق السيسى الذى خلف المشير طنطاوى ، برغم أن عمل طنطاوى مع الثورة يشبه عمل السيسى، فقد انحاز الجيش بقيادة طنطاوى إلى الثورة ، وعزل مبارك ، وتماما كما انحاز الفريق السيسى إلى موجة الثورة الثالثة فى ٣٠ يونيو ٢٠١٣ ، ونفذ أمر الشعب بعزل مرسى ، وقد كان الأخير من خلفية مدنية ، وكان مهندسا على حد التوصيف الوظيفى فى بطاقة الرقم القومى، لكنه لم يصل فى السياسة والحكم إلى مرتبة "عامل المحارة"، وبدا كأنه عسكرى أمن مركزى فى تلقى وتنفيذ أوامر قادته فى مكتب إرشاد الإخوان ، والمعنى بسيط وقاطع ، وهو أن الخلفية المهنية ليست معيار النجاح أو السقوط ، فقد تجد مدنيا صالحا وآخر طالحا ، وفى العسكريين ـ أيضا ـ صالحهم وطالحهم ، وهذه قاعدة ثابتة فى تاريخنا وفى تواريخ الآخرين ، فالجنرالان أيزنهاور وديجول توليا رئاسة أمريكا وفرنسا على التوالى ، والرئيس الحالى لأندونيسيا ـ أكبر بلد فى العالم الإسلامى ـ جنرال ووزير دفاع سابق ، وجرى انتخابه بعد فشل الرئيسين المدنيين عبد الرحمن وحيد وميجاواتى سوكارنو ، ثم أن الجيش المصرى ليس عسكرا ولا معسكرا ، ولم ينشأ بطابع طبقى ولا بطابع أيديولوجى ، وهو مؤسسة رفيعة الاحتراف والانضباط ، وظلت واحدة من أهم مزارع ومدارس الوطنية المصرية ، وهو جيش أحمد عرابى وجمال عبد الناصر ، وقد حلت بجيشنا مراحل ضعف هى ذاتها مراحل

الانحطاط الوطنى العام ، وهو ما يفسر تواضع وسوء صورة جنرالات من نوع طنطاوى وعنان ، وركود وبلادة شخصية مبارك التى ألقت ظلالها الكئيبة على الجيش ، وقد بدا السيسى - فى ظل هذه الصورة - فلتة حقيقية ، فقد بذل جهدا جبارا فى إعادة تنظيم الجيش ورفع كفاءته القتالية ، واستعاد للجيش احترامه التقليدى الراسخ عند المصريين ، وكان ذلك إنجازا رفيعا يحتسب للرجل ، فقد تدهورت مكانة الجيش على أيام طنطاوى وعنان ، وكان بؤس أداء الرجلين إضافة إلى بؤس السيرة هو السبب ، بينما بدت صورة السيسى ناصعة بالمقابل ، فلم يأخذ الرجل سنتيمتر أرض فى عصر الفساد المعمم زمن مبارك ، ولم تلحق به ولا بعائلته شبهة فساد أو تربح أو استغلال نفوذ ، وبدا الرجل جنرالا كفئا نظيف اليد ، ولم تشب سيرته العسكرية غلظة ولا مظهرية كالتى كانت لطنطاوى وعنان وأترابهما ، ومن هنا بدا السيسى كقائد يليق بأعرق التقاليد الوطنية للجيش المصرى .

غير أن صورة السيسى - شعبيا - بدت أوسع نطاقا من مجرد كونه قائدا يليق بالجيش المصرى ، وقد مرت على قيادة الجيش أسماء كثيرة ، لكنها لم تحظ بقبول الناس ، ولا ذاع صيتها خارج دائرة المهنة العسكرية ، خاصة فى جيش لم يخض حربا وطنية بعد ملحمة أكتوبر ١٩٧٣ ، فالحروب هى التى تفرخ القادة العظام ، وقد بدا السيسى عنوانا على حرب وطنية من نوع مختلف ، ليست الحرب فى عزل مرسى بالطبع ، فقد انتهى أمر مرسى مع خروج عشرات الملايين المصريين فى "تمرد" الثلاثين من يونيو ، وكان الفشل المذهل لجماعة الإخوان هو الذى أسقط مرسى ، وكان انحياز السيسى لإرادة الشعب من بداهات الحالة الوطنية المصرية، بعدها بدأت الحرب الوطنية الجديدة التى يقودها السيسى ، وهى حرب بالمعنى الكامل للكلمة ، تحول فيها التنظيم الدولى للإخوان إلى عدو خارجى بعد فقدانه لعطف الداخل ، وانتظمت فيها أدوار ظاهرة للمخابرات الأمريكية والإسرائيلية والبريطانية مع المخابرات التركية الأطلنطية ، وتدفقت

فيها مليارات عابرة للحدود ، وتضخمت جيوش إرهاب بأسلحة بالغة التطور ، عبرت الحدود السائبة من الشرق ومن الغرب ، وتكدست ملايين من قطع السلاح - الليبى بالذات - فى الداخل المصرى، وبدت سلطة الدولة متآكلة فى إطراد ، بل تواطأ رأس الدولة - على عهد مرسى - على هدم الدولة، وقبلها كان تراخى سلطة المجلس العسكرى على عهد طنطاوى وعنان ، وهو ما يفسر سر الثقة الغبية التى بدا عليها خيرت الشاطر - ملياردير الإخوان - فى حوار جرى مع السيسى قبل ثورة ٣٠ يونيو ٢٠١٣ ، فقد هدد الشاطر بتحرك جيوش الإرهاب إذا سقط مرسى ، وهو ما يحدث الآن بالضبط ، وبدءا من حرب سيناء إلى مظاهرات الإخوان فى القاهرة ، والتى تحاول تعويض ضعف الحشود باللجوء إلى العنف ، والدفع إلى إسالة الدماء وتساقط الضحايا بالمئات ، وتصدير الصور طلبا لتدخل أمريكا بصفتها "المجتمع الدولى" المخاطب فى بيانات قيادة الإخوان ، وهنا تظهر ملامح مضافة تزيد من تألق السيسى ، فهو يقود حربا وطنية محترفة لإنقاذ مصر من خطر داهم ، ويحرص فى الوقت نفسه على التسريع ببرنامج الانتقال للحكم الديمقراطى ، وكلما زاد حنق الإخوان عليه ، وكلما أوغلوا فى سبه وشتمه ، كلما زادت شعبيته ، وإلى حد يصح معه القول بدور لا إرادى للإخوان فى دعم شعبية السيسى ، ففى أوقات الحرب ، يصطف الناس ضد الغزو الخارجى ، وقد نجح الإخوان فى تصوير أنفسهم كقوة غزو بامتياز ، فقد يكسبون عطفا فى الغرب المعادى بالطبيعة لقضية الاستقلال الوطنى المصرى، لكنهم يكسبون - بالمقابل - كراهية مفزعة فى الداخل المصرى ، ويصعدون بشعبية السيسى إلى أعلى ذراها ، فالرجل هو عنوان التصدى للخطر ، ويبدو إلى ذلك رجلا متدينا متواضعا ، ومثقفا إلى حد مدهش ، وصاحب رؤية وطنية مصرية خالصة ، ويجيد فنون التواصل مع عموم الناس ، ويمتاز بخطاب عاطفى تلقائى مؤثر فى قلوب المشاهدين والسامعين، فالسيسى ليس - فقط - عسكريا مختلفا ، بل رجل مختلف بالجملة ، وبتكوين ذاتى يوحى بالثقة ، ويستعيد إيحاءات من صورة عبد الناصر

المحفورة فى وجدان المصريين ، ويبدو كأنه عبد الناصر جديد فى ظروف مختلفة ، وكاتبه المفضل هو الأستاذ محمد حسنين هيكل ، وهو نفس الكاتب الاستثنائى الذى اكتسب مكانته بحواره وجواره مع جمال عبد الناصر .

وبالجملة ، تبدو صورة السيسى مزيجا من دورين، دور القائد للحرب الوطنية، ودور العنوان للديمقراطية الشعبية فى الوقت نفسه ، وفرصته مؤكدة فى فوز انتخابى ساحق لو انتهى إلى قرار الترشح ، وأغلب الظن أنه سيفعل .

"القدس العربى " فى ١٤ من أكتوبر ٢٠١٣

obeikan.com